أبو العَيْنَاء محمد بن القاسم
أحَدُ ظُرفَاءِ العَالَم وَأفصحهم لسَانًا

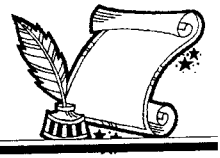

أبو العيناء فى سطور

هو محمد بن القاسم ، مولى أبى جعفر المنصور ، صاحب النوادر ، وأحد ظرفاء العالم .

له مكانته بين الشعراء والأدباء .

أصله من اليمامة ، ومولده بالأهواز ، ومنشؤه بالبصرة .

كان من أحفظ الناس ، وأفصحهم لسانا ، وأحسنهم بيانا ، وفيه من اللَّسَن [1]، وسرعة الجواب والذكاء مالم يكن فى أحد من نظرائه ، ولَه أخبارٌ حِسَان ، وأشعار مِلاح مع أبى علىً الضرير .

كُفّ بصره ، وله أربعون سنة !

وُلد سنة تسعين ومئة من هجرة النبى ﷺ ، وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومئتين .

ولقب بأبى العيناء ، لأنه قال لأبى زيد الأنصارى : كيف تُصَغّر عينا ؟

فقال : عُيَيْنًا يا أَبَا العيناء !

فظل هذا اللقب ملازما له طول حياته ، يعرفه الناس به ، ويُطلقونه عليه .

وكان أبو العيناء من أصحاب الأجوبة المسكتة ، والبديهة الحاضرة ، فقد كان من أحضر الناس جوابا ، وأجودهم بديهة، وأملحهم نادرة ، يحدثنا عن نفسه فيقول : لما دخلت على

(١) يقال : لَسِنَ : فَصُحَ وبَلُغ فهو لَسِن ، صاحب فصاحة وبيان .

«الأمير المتوكل» دعوت له ، وكلمته ، فاستحسن خطابى وقال لى : بلغنى أن فيك شرا ؛ فقلت :

يا أمير المؤمنين ، إن يكن الشرُّ ذكرَ المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، فقد مدح الله تعالى وذم ؛ فقال فى المدح والتزكية : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] ، وقال سبحانه فى الذم : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) ﴾ [القلم : ١١ - ١٣] فذمه الله تعالى حتى قذفه !

وإن كان الشر كفعْل العقرب تلسع النبى والدّنى ، فقد صان الله تعالى عبدك عن ذَلك فسكت المتوكل.

هذا وأرجو أن تسعد بمصاحبته .

دون الناس

قال أبو العيناء : اشتدت بى الحال ، فكتمتُها عن أصدقائى ، فدخلت يوما على «يحيى بن أكثم» فقال: إن أمير المؤمنين «المأمون» جلس للمظالم ، فهل لك فى الحضور ؟ قلت : نعم ، فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين ، فلما دخلنا عليه ، أجلسه وأجلسنى ، ثم قال :

يا أبا العيناء ، ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته:

لقد رجوتُك دونَ الناسِ كلِّهِم
وللرجاءِ حقوقٌ كُلُّها تَجبُ

إن لم تكن لىَ أسبابٌ أعيشُ بها
ففى العُلا لك أخلاقٌ هِىَ السَّبَبُ !

فقال : ياسلامة ، انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مالِ المسلمين ؟

فقال : بقية من مال !

قال : فادفع إليه مئة ألف درهم ، وابعث له بمثلها فى كل شهر !

فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون ، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه ، فدخل عليه بعض أولاده فقال : يا أبتاه ! بعد ذهاب العين ، ماذا ينفع البكاء !

فأنشد أبو العيناء يقول :

شيئان لو بَكَتِ الدماءَ عليهما

عـــيـنـاىَ حـــــتى يُـوْذِنا بـذهاب !

لم يبلغا المِعْشَارَ من حَقّيهما

فـقـد الشـبـاب ، وفُـرقـة الأحـبـاب!

فياله من وفىّ !

أبو العيناء

ومَن كان يتيه عليه فى ولايته !

قال أبو العيناء : كان «عيسى بن فرخان شاه» يتيه علىّ فى ولايته الوزارة ، فلما صُرِفَ عنها ، رَهِبَنِى ، فلقينى ، فسلم علىّ فأحْفَى (أطال واستقصى) فقلت لغلامى : من هذا ؟

قال : أبو موسى ، فدنوت منه ، وقلت :

أعـزّك الله ! ، والله لقـد كنت أقنع بإيمائك (إشـارتك) دون بيانك ، وبلحظك دون لفظك .

فالحمد لله على ماآلت إليه حالك .

فلئن كانت أخطأت فيك النعمة ؛ فلقد أصابت فيك النِّقْمة!
ولئن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك ، لقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك !

ولله المنّةُ إذْ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزهنا عن قول الزور فيك ، فقد - والله - أسأت حَمْلَ النعم ، وما شكرت حقَّ المنعم .

فقيل له : يا أبا عبد الله ، لقد بالغت فى السبّ ، فما كان الذنب ؟

قال : سألته حاجة أقلَّ من قيمته ، فردنى عنها بأقبحَ من خلقته !

الجوابُ الذى أَسْكَت الوزير !

حضر أبو العيناء مجلس بعض الوزراء ، فتداولوا حديث «البَرامكة [1]» وكرمهم ، وما كانوا عليه من الجود !

فقال الوزير لأبى العيناء - بعد أن بالغ فى وصفهم ، وما كانوا عليه من البذْل والعَطاء - : لقد أكثرتَ يا أبا العيناء من ذكرهم ووصفِك إيّاهم !

وإنما هذا تصنيفُ الوَرّاقين [2]، وكَذِبُ المؤلفين !

فقال له أبو العيناء :

فلِمَ لا يكذبُ الوَرّاقُون عليك أيها الوزير ؟

فسكت الوزير ، وعجب الحاضرون من إقدامه عليه !

---

(١) كانوا من الفرس ، وقد تولوا شئون الدولة فى عصر الرشيد ، وقد أوقع بهم حين بدر منهم ماعده الرشيد خيانة .

(٢) الوراقين : بائعى الكتب ، ومن يشتغلون بالتأليف .

الذين أجرموا

قال الخليفة - المتوكل له يوما : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك !

فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) ﴾ [المطففين : ٢٩]

ما الذى أخّرك عنّا يا أبا العيناء ؟!

دخل «أبو العيناء» على «أبى الصقر إسماعيل بن بلبل» الوزير يوما ، فقال له : ما الذى أخرك عنا يا أبا العيناء ؟!

قال : سُرق حِمارى !

فقال : وكيف سُرق ؟

قال : لم أكن مع اللص فأُخبِرَك !

قال : فهلاّ أتيتنا على غيره !

قال : قعدَ بى عن الشراء قلةُ يَسَارى ! وكرهت ذُلّ المُكَارِى ، ومنّةُ العوارى[1] !

شكوى إلى وزير !

وشكا «أبو العيناء» إلى عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير- سُوءَ الحال !

فقال له : أليس قد كتبنا إلى «إبراهيم بن المدبر» فى أمرك؟

(١) ذكر ثلاثة أسباب حالت دون ركوب غير الحمار المسروق :
(أ) أنه قليل اليسار والغني ، فليس معه ما يشتري به غيره !
(ب) أنه كره ذُل «المكاري» وهو الذي يؤجر الدواب مقابل أجر .
(جـ) أنه كره أن يستعير دابة فيمُنّ عليه بعد ذلك معيرها .
والمراد بقوله : «قعد بى عن الشراء» أعجزني ، وحال بيني وبينه .

فقال : نعم ، قد كتبت ، ولكن إلى رجل قد قصر من همته طول الفقر ، وذُلُّ الأسر ، ومُعاناةُ الدهر - فأخفق سَعْيى ، وخابت طِلْبَتى[1] !

فقال عبيد الله : أنت اخترته !

فقال أبو العيناء : وما عَلَىّ أيها الوزيرُ فى ذلك ، وقد اختار موسى - عليه السلام - قومَه سبعين رجلا ، فما كان فيهم رشيد !

واختار النبى ﷺ «عبد الله بن سعد بن أبى سَرح» كاتبا ، فرجع إلى المشركين مُرْتَدًّا !

واختار «علىٌّ بن أبى طالب» أبا موسى الأشعرى حاكما له فحكم عليه !

ليست منهم

خاصم أبو العيناء أحد العلويين ، فقال له العَلَوى: تُخَاصمنى وأنت تقول كل يوم :

«اللهمّ صَلّ على محمدٍ ، وعلى آل محمد»

ونحن آله !

فقال أبو العيناء : لكنى أقول :

«الطيبين الطاهرين» ؛ ولست منهم !

---

(١) كان قد أسره علي بن محمد صاحب الزنج بالبصرة ، وسجنه ، فنقب السجن وهرب . والطِّلبة - بكسر الطاء : المطلوب .

رجل من بنى آدم

ووقف على أبى العيناء رجل من العامّة ، فلما أحسَّ به ، قال :

من هذا ؟ فقال : رجل من بنى آدم !

فقال أبو العيناء : مرحبًا بك ، أطال الله بقاءك !

ما كنت أظن هذا النسلَ إلا قد انقطع !

لكل جديد لَذّة

سار أبو العيناء يوما إلى باب «صاعد بن مخلد» ، فاستأذن عليه فقيل :

«هو مشغول بالصّلاة»

فقال أبو العيناء : لكل جديد لذة !

وكان صاعد قبل الوزارة نَصْرانياً !

مالِيَ لا أسمع الصُّراخ عليه ؟!

مر أبو العيناء بباب عبد الله بن منصور [1]، وهو مريض ، وقد تماثل للشفاء ، فقال لغلامه :

كيف خبره ؟

فقال الغلام : هو كما تحب !

فأجاب أبو العيناء : فما ليَ لا أسمعُ الصُّراخَ عليه ؟!

---

(١) كان عبد الله بن منصور عدوا له كما جاء فى وفيات الأعيان لابن خلكان ٣:٤٦٧ ، ونثر الدر للآبى ١٦٧/٣ .

أسألك الرحمة

دعا أبو العيناء سائلا ليُعَشِّيَهُ ، فلم يَدَعْ شيئا فى البيت إلا أكله !

فقال له أبو العيناء : يا هذا دعوتك رحمةً بك ، فاتركنى رحمةً بى .

لمَ العجب ؟!

لقيه بعض أصحابه فى السّحَر «قبيل الفجر» فجعل يتعجب من بُكوره !

فقال له أبو العيناء : أراك تشاركنى فى الفعْل ، وتُفْرِدُنى بالتعجب ؟!

إن هذا لعجيب منك !

أبو العيناء والمتوكل

قال الخليفة المتوكل لأبى العيناء : ماأشدُّ ما مر بك فى ذهاب بصرك ؟

قال : فوتُ رؤيتك يا أميرَ المؤمنين مع إجماع الكافّة على جمالك !

إلى متى ؟!

قيل لأبى العيناء : إلى متى تمدح الناس وتهجوهم؟!

فقال : مادام المحسُن يُحسن ، والمسىء يسىء !

وأعوذ بالله أن أكون كالعقرب التى تلسع النبى والذِّمِّىَّ !

أتريد أن تقتلنى ؟!

كان عَلَى «نجاح بن سلمة» دَيْنٌ ؛ فسُلّم إلى «موسى بن عبد الله الأصبَهانى» ليستوفى ما عليه من الأموال ، فاشتد عليه فى العقاب ، فتَلف!

وفى تلك الليلة بلغ «المعتز بالله بن المتوكل» الخبر، فاجتمع بعض الرؤساء بأبى العيناء ، فقال له :

ما عندك من خبر «نجاح بن سلمة» ؟

فقال أبو العيناء

﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص : ١٥]

فبلغت كَلمتُه موسى ، فلقيه فى الطريق فتهدّده !

فقال له أبو العيناء :

﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ ﴾ [القصص :١٩] .

ما تقول فى دارنا هذه ؟

دخل أبو العيناء على الخليفة المتوكل فى قصره المعروف بالجعفرىّ ، فقال له : ما تقول فى دارنا هذه ؟

فقال أبو العيناء : إن الناس بنوا الدور فى الدنيا ، وأنت بنَيْت الدنيا فى دارك !

فاستحسن كلامه ، وقال له : نادمُنا [1]..

فقال : أنا رجل مكفوف ، وكل من فى مجلسك يخدُمُك ، وأنا محتاج أن أُخْدَمَ !

---

(١) جالسنا للسمر والسهر .

ولست آمَنُ من أن تنظر إلى بعين راض ، وقلبك عَلَيَّ غضبان ! أو بعين غضبان ، وقلبك راض ! ومتى لم أميزْ هذين هلكت ! ؛ فأختار العافية على التعرض للبلاء .

فقال : بلغنى عنك بَذَاءٌ فى لسانك ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ قد مدح الله تعالى وذمّ ، فقال:﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] .

وقال - عز وجلَ - : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) ﴾ [القلم: ١١ - ١٣] .

وقال الشاعر :

إذَا أَنَا بالمعروفِ لم أُثْنِ صادقاً

ولَمْ أَشْتُمِ النِّكسَ[1] اللئيمَ المذَمَّما

ففيمَ عرفتُ الخيرَ والشَّرَّ باسمه

وشَقَّ لىَ اللهُ المسامعَ والفَمَا ؟!

فقال : من أين أنت ؟

قال : من البصرة ، قال : فما تقول فيها ؟

قال : ماؤها أُجاج[2] وحرّها عذاب ، وتطيب فى الوقت الذى تطيب فيه جهنم !

أجمل رسالة

كتب أبو العيناء إلى بعض الرؤساء - وكان قد وعده بشىء فلم ينجزه - :

ثقتى بك تمنعنى من استبطائك (اعتبارك بطيئا) وعِلْمى

---

(١) النكس : الرّذْل المقصر عن غاية المجد والكرم .

(٢) الأُجاج : ما يلذع الفم بمرارته أو ملوحته .

بشُغْلِك يدعونى إلى إذْكارِك !

ولست آمَنُ - مع استحكام ثقتى بطَوْلِك (فضلك وغناك ويسرك) ، والمعرفةِ لعلوِّ هِمَّتِك - اختِرَامَ الأجل ، فإن الآجالَ آفات الآمال !

فَسَحَ اللّهُ فى أجلك ! ، وبَلَّغك منتهى أملِك !

اعذرنى

قال له عبيد الله بن يحيى بن سليمان : اعذرنى فإنى مشغول !

فقال له أبو العيناء : إذا فرغتَ لم أحتج إليك !

أبو العيناء وبخيل

قال أبو العيناء : دعانى جارٌ إلى وليمة ، وكان بخيلا ، فرأيتهُ يدورُ على المائدة ، ويتنفّس الصُّعَداءَ [1]، ويقول :

﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ [الإنسان : ١٢]

مع بعض أمراء البصرة

قال : أبو العيناء : أكلت مع بعض أمراء البصرة ، فقُدم إلينا جَدْىٌ سمين !

فضرب القوم بأيديهم إليه ، فقلت :

ارفقوا به ؛ فإنه بهيمة .

---

(١) تنفس الصُعَداء : نفساً ممدوداً ، أو مع توجع .

كيف تجد هذا البرد ؟

ودخل أبو العيناء على عبد الرحمن بن خاقان ، فى الشتاء ، فقال له عبد الرحمن :

كيف تجد هذا البردَ يا أبا عبد الله ؟!

فقال : تأبى نُعْمَاك أن أجده[1] !

من رسائل أبى العيناء وكلامه المستحسن

كتب أبو العيناء إلى أبى الوليد بن أبى داود :

جُعِلْتُ فِداك ، مسَّنا وأهلناَ الضُّرُّ ، وبضاعتُنا المودّة والشّكر!

فإن تُعطنا أكن كما قال الشاعر :

أنا الشـــهـــابُ الذى يحـــمى ديَارَكُمُ

لا يَخـمُـدُ -الدهرَ- إلا ضـوءهُ يَقِـدُ

وإن لم تفعل ؛ فلسنا ممّن يَلْمِزُك[2] فى الصدقات ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة : ٥٨]

هو وابن ثوابة

قال أبو العيناء يوما لابن ثَوابَة :

يحتاج عقلُك إلى صمت يَستُرُه !

ونُطقُك إلى عَقْلٍ يُسَدِّدُه!

---

(١) يأبى فضلك علىّ وكرمك أن يجعلنى أشعر بالبرد .

(٢) يلمزك : يعيبك .

أنا أعلم من الهُدْهُد

كان إسماعيل بن إسحق القاضى ببَغداد إماماً فى الفقه ، وفى العربية ، وذات يوم دخل عليه أبوالعيناء، فجعل يرد عليه إذا غَلطَ - اسم رجل ، وكنيةَ آخر ، فقال له بعض مَن حضر :

أتردُّ على القاضى أعزّه الله ؟! ، كأنك أحطت بما لم يُحطْ به ، فقال :

نعم لِمَ لا أردُّ على القاضى ، وقد ردّ الهُدْهُد على سُلَيْمان، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]

وأنا أعلم من الهُدْهُد !

وسُليمان أعلم من القاضى !

كيف تركت فلانا

قيل لأبى العيناء : كيف تركت فلانا مع قومه ؟

قال : ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [النساء: ١٢٠]

هو وأبوه

قال رجل لأبى العيناء : كان أبوك أكمل منك !

فقال : إن أبى كنتُ أنا به ، ولم يكُ بى ؛ فهو أوْلى بالكمال منى !

وقال له الخليفة المتوكل :

أكان أبوك مثلك فى البيان ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ، لو رأيته لرأيت عبداً لك لاترضانى عبدًا له !